

نظرية العصبية قراءة معاصرة في مقدمة ابن خلدون



د. علاء زهير عبد الجواد الرواشدة
أستاذ مساعد – قسم العلوم التربوية والاجتماعية
كلية عجلون الجامعية – جامعة البلقاء التطبيقية
المملكة الأردنية الهاشمية
alaa_rwashdeh@yahoo.com



الاستشهاد المرجعي بالمقال:
علاء زهير عبد الجواد الرواشدة، نظرية العصبية: قراءة معاصرة في مقدمة ابن خلدون.- دورية كان التاريخية.- العدد الحادي عشر؛ مارس ٢٠١١. ص١٧ – ٢٠.
(www.historicalkan.co.nr)

تقديم

يأتي هذا المقال بهدف التعرف على مفهوم العصبية كما وردت في مقدمة ابن خلدون، إضافة للتعرف على أشكالها و مصادرها وأدوارها الايجابية والسلبية في الحياة الاجتماعية والسياسية. من خلال منهج استقرائي متعمق للفصول الخاصة بالعصبية في مقدمة ابن خلدون، ولأهم المراجع التي تحدثت عن موضوع العصبية بشكل مباشر. وبعد العرض والناقشة والتحليل توصل المقال إلى مجموعة من النتائج حول العصبية وأدوارها ومصادرها.من خلال علاقة العصبية بالدولة والدين.

مقدمة

تعتبر العصبية الظاهرة الأبرز في الأبحاث الخلدونية، وهي الصورة التي تعكس المجتمع البدوي بشكل دقيق، كما أنها تعتبر الميكانزم للمجتمع نحو التنظيم والتعاون والانتقال إلى الحضارة. وهي مصدر القوة ومبعثه. لذا يأتي هذا البحث للتعرف إلى نظرية العصبية عند ابن خلدون باعتبارها من أهم المفاهيم التي استخدمها في دراسته وتحليله للمجتمع العربي الإسلامي في عهده. أما أهداف البحث فتتمثل: بمحاولة التعرف على مفهوم العصبية كما وردت في مقدمة ابن خلدون ومناقشتها وتحليلها. إضافة للتعرف على أشكال العصبية ومصادرها وأدوارها الايجابية والسلبية كما وردت في مقدمة ابن خلدون، وذلك من خلال الحديث عن علاقة العصبية بالدولة، وعلاقة العصبية بالدين. ويقوم الاعتماد الأساسي لهذا البحث على المنهج الاستقرائي لمقدمة ابن خلدون وبالذات الفصول الخاصة بنظرية العصبية وهي:

أ. الباب الثاني ويشمل الفصول رقم (٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٧، ٢٧).

ب. الباب الثالث ويشمل الفصول رقم (١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٩) بالإضافة إلى اختيار أهم المراجع التي تحدثت عن موضوع العصبية.

لذا فإن البنية العامة لتحليل ودراسة هذه القضية يقوم على تقديم تعريف جامع مانع لمفهوم العصبية، بعد مناقشة لآراء بعض المفكرين حولها. ثم التعرف إلى مصادر العصبية وأشكالها ومكانها كما حددها ابن خلدون في مقدمته. ومن ثم التعرض للأدوار التي تلعبها العصبية في الحياة الاجتماعية. وينتهي البحث بخاتمة ملخصة لآراء ابن خلدون في العصبية، متضمنة وجهة نظر الباحث ومداخلاته.

تعريف العصبية

يشمل تعريف العصبية التعرض إلى:

(١) المعنى، التعريف اللغوي للعصبية:

يعرف محيط المحيط العصبية بأنها " الخصلة المنسوبة إلى العصبية .... فإذا قلت تعصب الرجل فكأنك قلت أرى في نفسه هذه الخصلة " وقال الأزهري: " عصبة الرجل أولياؤه الذكور ..... وكل شيء استدار بشيء – أي تحلق حوله – فقد عصب به " وتسمى العمائم بالعصائب بهذا المعنى لأنها تتحلق حول الرأس وتدفع عنه عوامل الجو. أما في حالة التحلق حول إنسان والعمل بناء على إرادته الشخصية غير الموجهة من دين أو عقل فهو " عصب القوم بفلان أي استلفوا حوله، يقول الشاعر الجاهلي وسيد معشر قد عصبوه .....) بمعنى أنهم التفوا حوله وأعطوه السيادة كي يعطيهم منافعها.[١]

وفي لسان العرب: (والعصائب جمع عصابة وهي ما بين العشرة والأربعين .....) فهي مجموعة من الناس انتظمت لمصلحة ذاتية محددة قد يكون فيها أذى للآخرين ومنفعة لعشرة أو أربعين أو أكثر أو أقل. وهي كذلك (أن يدعي الرجل نصرة عصبية ....) دون أن يكون في ذلك نصرة للحق أو للأمة ، بل قد يدعي الرجل نصرة عصبته ضد أمته . وعرفت على أساس أنها رابطة دموية وتلاحم للأرحام وتكاتف وتنافر (عصبة الرجل بنوه وقرابته لأبيه والعصبة الذين يؤثرون الرجل).(٢)

ولقد اشتق لفظ العصبية الإفرنجي Partikularismus لغوياً من اللاتينية Partie Pars ومن هذه الكلمة العصبية يفهم الإنسان الميل ومحاباة فريق أو حزب بدون مراعاة لمصلحة المجموع ولأسباب اجتماعية يحب الإنسان عشيرته ويخصها بقوله ومساعدته ، وكثيراً ما يكون هذا الحب أو تلك المساعدة ضد مصالح الآخرين. وفي مثل العرب اختص البدوي قبيلته بحبه ومساعدته فعاشت كل قبيلة منفصلة عن غيرها لهذا السبب قضى سكان جزيرة العرب حياتهم يحارب بعضهم بعضاً منقسمين على أنفسهم فتمكنت الأمم الأخرى أن يخضعوا بلاد العرب لسلطانهم.(٣) وكلمة عصبية في مفهومها اللغوي "تدل على التمسك بالأنساب والنصرة في سبيلها وهذا بالطبع يستدعي التحيز والتفاخر وبالتالي الخصومات والمنازعات والأقتال الذي يؤدي إلى تفرقة الصفوف وتفتيت الجهود ".(٤)

(٢) المعنى الاصطلاحي والاجتماعي للعصبية:

إن العصبية بالمفهوم الاصطلاحي تتجاوز مدلولها اللغوي ، فهي عند ابن خلدون يمكن استخلاصها من الفصل السابع والثامن والتاسع من الباب الثاني من المقدمة فترد إلى الفطرة العمياء من أجل الحاجة إلى الأعوان للسيطرة ، يقول (هي نزعة طبيعية – بمعنى فطرية- بين البشر مذ كانوا) ، أي قبل أن يصبح للناس مثلاً عالياً وقيماً دينية وأخلاقية لأن هذه النزعة تحمل على التعاضد والتناصر الغريزي ، فتختلف قوتها بقدر حاجة الغريزة إليها ، وتعتمد على تبرير النسب من أجل سيطرة الغريزة وتكثير الأتباع ، ومن هنا يؤكد ابن خلدون على وهمية النسب ، كونه حقيقة معنوية وعبارة عن مجرد قناعة ذاتية ، لا حقيقة واقعية ، يقول (المعنى الذي ...... به الالتحام إنما هو العشرة والمدافعة) ، ولهذا يكثر مدعي القرابة لمن حوله عشرة كبيرة ، وكلما كثر الأتباع زاد عدد مدعي التبعية والنسب ، وبرروا سلوكهم بالقرابة من أجل السيطرة والتقاط الغنائم.(٥)

والعصبية قوة طبيعية متطورة ومتحركة غير ساكنة فهي المولد الدائم للصراعات والمنازعات ولا تظهر بصورة واحدة ، إذ هي متعددة الوجوه ، يشتد مفعول العصبية كلما ضاق مجال رباطها فهي قوية في الأسر أكثر من قوتها ضمن العشيرة والقبيلة وهكذا كلما بعدت اللحمة ضعفت حدة العصبية ، والعصبية تجري نحو الملك لأنه غاية لها ولكنها تعجز عن الاحتفاظ به بسبب ما يكمن فيها من سلبيات وبسبب ظهور عصبية أخرى مقامة لها ، وهذا لا يتحقق إلا بواسطة القوة والغلبة المنطويان على القتل والدمار واندثار المآثر الحضارية وزوال المعالم العمرانية المتطورة.(٦) فالعصبية شكلاً من أشكال الالتحام القائم على النسب الذي يحمي ذوي القربى فلا يعتدي أحدهم على الآخر ، بل ينجد كل منهما الآخر في وقت الشدة. يقول ابن خلدون "فإذا كان النسب المتواصل بين المتناحرين قريباً جداً بحيث حصل به الاتحاد والالتحام كانت الوصلة ظاهرة فاستدعت ذلك بمجردها ووضوحها."(٧) إن العصبية في نظر ابن خلدون تمثل وازعاً يربط القبائل البدوية فيما بينها من أجل الملك والقهر والاستيلاء على ملكيات القبائل الأخرى ولصد الاعتداءات الخارجية. فهي بمثابة الدرع الحصين لهم. وفي الواقع تمثل العصبية ظاهرة بدوية صرفة جوهرها النسب الذي يجمع كافة أعضائه ، ويحثهم على الالتحام والوئام والمدافعة عن كرامة وقيم القبيلة وشرفها. فهي عامل موحّد بين أعضاء القبيلة الواحدة وعامل مفّرق بين الأنساب المتباينة في انحدارها الاجتماعي وأصالتها في المجتمع البدوي.(٨)

إن ابن خلدون يتخذ رابطة العصبية موضوعاً لدراسة شاملة وعميقة ، يستعرض أشكالها وصورها المختلفة ويتتبع الأدوار التي تلعبها في حياة المجتمعات بوجه عام وفي حياة الدولة بوجه خاص. وقد أثار تعريف ابن خلدون للعصبية اهتمام علماء علم العمران ، فوضعوا لها تعريفات مختلفة ومنها: العصبية عند روزنتال " هي القوة الحيوية لصيرورة الدولة". وعند دي سلان " روح التضامن" ، وعند توينبي " هي الجبلة النفسية التي تبنى عليها كل الأحزاب السياسية وكل الأجهزة الاجتماعية". أما عند هلموت ريتر فيقول: إن ما يسميه ابن خلدون بالعصبية هو ما أطلق عليه ماكيافيلي اسم " الفضيلة" وهو القابلية الفطرية السياسية ، والعمل القتالي ، والمشاركين بين إرادة القوة وبين الأهلية العملية التي تميز الزعماء.(٩)

ومن التعريفات الأخرى: " الوطنية " و " الوعي الوطني " والعاطفة الوطنية " و " الروح العام " و " التضامن الاجتماعي " و " إرادة جماعية " و " تضامن بمعناه القوي جداً". وما يلاحظ على هذه التعريفات أنها أهملت تعيين المكان الذي تتكون فيه العصبية ، فكأنها اقتلعتها من المجتمع القبلي حيث تولد وتنشأ ، ووضعها في مكان حائر ومشترك بين جميع المراحل التي يمر بها المجتمع ، كما أنها لم تعين العناصر الداخلة في تكوينها ، في حين أن العناصر الداخلة في تكوينها والأهداف التي تسعى إلى تحقيقها حددها ابن خلدون.(١٠) فعبارة عصبية مشتقة من جذر " س و ب " الذي يعني : ربط ، وقد ظهرت كلمة عصبية ، مبكراً في الأدب العربي ، وهي مثبتة في حديث شريف: " أمن العصبية أن يحب المرء شعبه ؟ أجاب الرسول: كلا ! ولكنها العصبية أن يساعد شعبه في أعمال جائزة " . وبالتالي فالعصبية لا تعني عاطفة ولا سلوكاً نفسياً، بل تعني واقعاً اجتماعياً وسياسيًا معقداً جداً ، لكن نتائجها النفسية هامة.(١١)

وفي ضوء ما تقدم يتضمن التعريف الصحيح للعصبية مجموعة من الشروط وعلى رأسها الشرط الذي ينطوي عليه المعنى اللغوي للفظة "عصبية " المشتقة من لفظة " عصب " ومعناها النسب. ويمكن صياغة التعريف على الوجه التالي " إنها الوجه من التضامن بين بني البشر الذي يرتكز أساساً على وحدة النسب ويلحقه الولاء والحلف. والذي تفرضه طبيعة المجتمع البدوي القائم على وحدة القبيلة واستقلالها بمواجهة القبائل الأخرى. وهو يحقق لهذا المجتمع طموحاته وتطلعاته ، من تنظيم القبيلة في جميع الحقول ، إلى المناصرة والمدافعة تجاه الخصم ، إلى بناء السلطة العامة التي تنقله إلى حالة الحضارة."(١٢)

مصدر العصبية وأشكالها ومكانها

مستقرء من الباب الثاني في الفصول التالية (٨، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤) من المقدمة. يرى ابن خلدون أن مصدر العصبية ؛ الطبيعة البشرية وأثر القرابة في الحياة الاجتماعية. في حين أنه فسر أشكال العصبية برابطة القرابة والنسب ، ثم وسعها إلى الولاء والحلف

ثم إلى الرق والاصطناع. في حين أن مكانها هو الحياة البدوية بشكل واضح أما مصادر العصبية فيشير لها ابن خلدون في مقدمته قائلاً " إن صلة الرحم طبيعي في البشر إلا في الأقل. ومن صلتها: النعرة على ذوي القربى والأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة. "فإن القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه ، أو العداء عليه " " نزعة طبيعية في البشر مذ كانوا ". إن هذه النزعة الطبيعية في البشر ، تؤدي إلى (الاتحاد والالتحام) بين أفراد النسب الواحد ولهذا نجدهم يشتركون في (حمل الديات) ويتعاونون على (دفع العدوان) ويتناصرون في تحقيق المطالب.

يتبين مما تقدم:

(١) أن العصبية تتولد من القرابة — من حيث الأساس- وهي تستند إلى وحدة النسب — في الدرجة الأولى. غير أن للقرابة درجات متفاوتة ، مثل التي بين أبناء الأب الواحد إلى التي بين أهل القبيلة الواحدة ، فالقرابة في النمط الأول أقوى من النمط الثاني لذا فإن قوة العصبية المتولدة من القرابة تختلف باختلاف درجة هذه القرابة ؛ لنجد أن الالتحام المتولد من وحدة النسب الخاص يكون أقوى من الالتحام الناتج من وحدة النسب العام. (والنعرة تقع من أهل النسب الخاص والعام. في وقت واحد ، غير أنها تكون أشد في النسب الخاص). بمعنى أن العصبية واللحمة والنعرة في النسب الخاص أقوى منها في النسب العام.

(٢) إن رابطة النسب لا تختصر في نطاق القرابة وحدها. لأن الفرد قد ينفصل من نسبه الأصلي وينضم إلى نسب آخر لأسباب عديدة ويحدث بصور مختلفة أهمها.(١١)

أ. القرابة

ب. الحلف

ج. الولاء

د. الدخالة .

لذلك يقول ابن خلدون في عنوان الفصل الثامن من الباب الثاني (إن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما معناه).

(٣) إن النسب يفقد صراحته والعصبية تفقد قوتها في الحياة الحضرية (على عكس الحياة البدوية) وذلك لسببين:

أ. إن حياة البداوة تتضمن شيئًاءمن الاعتزال ، فاختلاط الأنساب يكون قليلاءفيها بطبيعة الحال.

ب. إن حالة البداوة تقتضي بطبيعتها وجود عصبية قوية ، لأن الدفاع عن الحي لا يتم إلا على أيدي (أنجادهم المعروفين بالشجاعة ولا يصدق دفاعهم وذيادهم إلا إذا كانوا عصبية وأهل ونسب واحد).

(٤) قد تكون العصبية متألفة من عصائب كثيرة ، ولكنه لا بد لأن تكون واحدة منها هي الغالبة على الكل حتى تجمعها وتؤلفها ، وتجعلها عصبية واحدة شاملة لجميع العصائب ، فتعدد العصائب يؤدي إلى التخاذل والضعف.(١٢)

(٥) أما عن الرق والموالي والاصطناع فيقول ابن خلدون (إذا اصطنع أهل العصبية قوماً من غير نسبهم أو استرقوا العبدان والموالي والتحموا به ..... ضرب معهم أولئك الموالي المصطنعون بنسبهم في تلك العصبية ولبسوا جلدتهم كأنهم عصبيتهم وحصل لهم من الانتظام في العصبية مساهمة في نسبها).

دور العصبية في الحياة الاجتماعية والسياسية

تلعب العصبية أدوار كثيرة ومهمة في الحياة الاجتماعية ، كما حددها ابن خلدون في العبارات التالية : وهي مستوحاة من المقدمة بشكل أساسي:

" العصبية تحمل الأفراد على التناصر والتعاضد في المدافعة والحماية والمقاتلة . إنها ضرورية (في كل أمر يحمل الناس عليه ، هن نبوة أو إقامة ملك أو دعوة ، إذ بلوغ الغرض من ذلك كله إنما يتم بالقتال عليه ، لما في طبائع البشر من الاستعصاء ، ولا بد في القتال من العصبية) .

(الملك إنما يحصل بالتغلب ، والتغلب إنما يكون بالعصبية)

(الرئاسة لا تكون إلا بالغلب ، والغلب إنما يكون بالعصبية)

(إن العصبية بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة ، وكل أمر يجتمع عليه)

(إن المطالبات كلها والمدافعات لا تتم إلا بالعصبية)

ويشرح هذه الأمور والتأثيرات في عدة فصول من المقدمة ، وأبرز ما تحدث عنه:

أولاً : علاقة العصبية بالدولة.

ثانياً :علاقة العصبية بالدين .

وعن علاقة العصبية بالدولة ، يرى ابن خلدون بأن العصبية ضرورية لتأسيس الدولة من جهة (دور إيجابي) ، وأنها قد تعرقل تأسيس الدولة من جهة أخرى (دور سلبي) ، وأما شرح ذلك فيمكن القول بأن العصبية ضرورية لتأسيس الملك والدولة ، غير أن الضرورة تنحصر في دور التأسيس والتمهيد ، وإذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تستغني عن العصبية للأسباب التالية:

(إن الملك هو غاية العصبية ، وإنها إذا بلغت غايتها حصل للقبيلة الملك ، إما بالاستبداد أو بالمظاهرة ، وإن أعاقها عن بلوغ الغاية عوائق وقفت في مقامها).

(إن الدولة العامة في أولها ، تكون غريبة على الناس ، غير مألوفة لديهم ، لذلك يصعب على النفوس الانقياد لها ، إلا بقوة من الغلب) وذلك لا يتم إلا بوجود عصبية قوية ، ومع مرور الزمن تصبح الطاعة بالعادة.

أما وسائل الاستظهار فهي واحدة من ثلاث:

أ . الموالي والمصطنعين الذين نشأوا في ظل العصبة.

ب . العصائب الخارجين عن النسب الداخلين في ولايته.

ج . الجند المرتزقة المستخدمين بالأجرة.

ولا يكتفي ابن خلدون بالقول إن الملك والدولة العامة إنما يحصلان بالقبيلة والعصبية بل يذهب إلى أن اتساع الدولة يكون متناسباً مع قوة تلك العصبة بل يذهب إلى أن اتساع الدولة يكون متناسباً مع قوة تلك العصبة. أما الدور السلبي المعرقل للعصبية تجاه الدولة ، يحدث إذا كانت الدولة متعددة ومتخالفة لأنه يقول في عنوان إحدى فصول المقدمة (إن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب ، قل أن تستحكم فيها دولة) ويعلل ذلك بقوله التالي: (والسبب في ذلك اختلاف الآراء والأهواء . وإن وراء كل رأي منها وهوى عصبية تمانع دونها. فيكثر الانتقاض على الدولة والخروج عليها في كل وقت ، وإن كانت ذات عصبية ؛ لأن كل عصبية ممن تحت يدها تظن في نفسها منعة وقوة) وهذا يعني أن كثرة العصائب والقبائل تؤدي إلى عدم الإذعان والانقياد للدولة . وبعكس ذلك يسهل انقيادها.

يلاحظ ابن خلدون بعض العلائق الهامة بين قوة العصبية وبين أمور الديانة والدعوة الدينية ، مقدما ءأدلة عقلية ونقلية وتاريخية على ذلك منها: (إن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم ، لأن الدعوة تتضمن حمل الناس على السير وفق ما تقتضيه الأوامر الدينية ؛ ولذلك لا تخرج عن نطاق الأمور التي تحتاج إلى عصبية). (وفي حديث شريف .... ما بعث الله نبيا ءإلا في منعه من قومه ، وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أولى الناس بخرق لعوائد ، فما ظنك بغيرهم أن لا تنحرف لهم العادة في الغلب بغير العصبية).

كما ويلاحظ أن هناك نوعا ءمن المشابهة بين تأثير الدين وبين تأثير العصبية في الحياة الاجتماعية لأن الديانة تؤلف القلوب ، وتوجهها إلى وجهة واحدة وتذهب بالتنافس والتحاسد وتؤدي إلى اتفاق الأهواء وتحمل على التعاون كما أن العصبية تحمل الناس على التعاون والتعاضد لذلك يقول ابن خلدون : (إن الدعوة الدينية ، تزيد الدولة في أصلها قوة العصبية التي كانت لها من عددها). (إن الاجتماع الديني يضاعف قوة العصبية) وهذه إشارة للمفاضلة بين الاجتماع الديني والاجتماع العصبي ، فالأول أقوى بثبوت الأدلة التاريخية فما وقع للعرب في صدر الإسلام بالقادسية والإسلام ، حيث بلغ عددهم بضعة وثلاثين ألفاً ، في حين أن جموع فارس كانت نحو مائة وعشرين ألفا ءبالقادسية ، وجموع هرقل كانت أربعمائة ألف باليرموك. يظهر من ذلك أن الدين يؤثر في نظر ابن خلدون تأثيرًا مماثلاً لتأثير العصبية في جمع القبائل ، وتأليف كلمتهم ، وحملهم على التعاضد الذي يتضمن الغلبة والملك.

النتائج ومناقشتها

تعرفنا فيما مضى على نظرية العصبية عند ابن خلدون في ضوء استقراء الفصول الخاصة بهذا الموضوع في مقدمته بشكل أساسي ، من حيث المفهوم والأشكال والمصادر والأدوار التي تلعبها العصبية في الحياة الاجتماعية. واعتماداً على هذا العرض والتحليل والمناقشة أعرض تاليا ءأهم أفكار ابن خلدون في العصبية ، مضمناً رؤيتي الخاصة من خلال النقاط التالية:

أ. أرى بأن العصبية في أصلها نوع من التكاتف والترابط الاجتماعي ، غير أن ابن خلدون لم يستعمل هذه الكلمة البحت ، بل استعملها بمعنى أوسع من ذلك بكثير لأنه في نطاق مفهوم العصبية كثيراً من أنواع الروابط الاجتماعية والظاهر التكاتفية ، ولهذا يمكن القول أن نظرية ابن خلدون في العصبية هي محاولة لدراسة الرابطة الاجتماعية بوجه عام والتكاتف الاجتماعي بوجه خاص. وعليه يمكن تعريف العصبية بمعناها الجامع المانع عند ابن خلدون بما يلي: " إنها شكل من التضامن بين البشر ، يرتكز على وحدة القبيلة واستقلالها بمواجهة القبائل الأخرى – مكان العصبية - ، وهو يحقق لهذا المجتمع طموحاته وتطلعاته من تنظيم القبيلة في جميع الحقول إلى المناصرة والمدافعة تجاه الخصم – أدواره في الحياة – إلى بناء السلطة العامة التي تنقله إلى حالة الحضارة – الهدف – ".

ب. إن مصدر العصبية عند ابن خلدون هو الطبيعة البشرية ، وأثر القرابة في الحياة الاجتماعية ، أما أشكالها فهي القرابة والنسب ثم الولاء والحلف ثم الرق والاصطناع. مكانها الحياة البدوية ، وتفقد قوتها في الحياة الحضرية " وقد تكون العصبية مؤلفة من عدة عصائب (العصبية الكبرى) ، ولكن لا بد أن تكون واحدة (عصبية صغرى) هي الغالبة على الكل ".[١٣] (تتكون العصبية من الالتحام بالنسب أو بالحلف والولاء).

ت. إن الأدوار التي تلعبها العصبية في الحياة الاجتماعية كثيرة ومهمة ويمكن تلخيصها بما يلي:

(١) العصبية تحمل الأفراد على التناصر والتعاضد في المدافعة والمقاتلة – التعاون والتماسك للحماية.

(٢) العصبية ضرورية في كل أمر يحمل الناس عليه من نبوة أو ملك أو دعوة ، ولا يكون هذا إلا بالقتال بسبب طبيعة البشر القائمة على الاستعصاء. ولا بد في القتال من عصبية (أي أمر- قتال - عصبية).

(٣) الملك يحصل بالتغلب ، والتغلب يكون بالعصبية . (الملك- الغلب- العصبية).

(٤) الرئاسة تكون بالغلب ، والغلب يكون بالعصبية (الرئاسة- الغلب- العصبية).

(٥) إن العصبية بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة ، وكل أمر يجتمع عليه .

(٦) إن العصبية ضرورية للدعوة الدينية ، فهي بغير العصبية لا تتم .

(٧) حياة القبائل البدوية تتطلب العصبية أولاً ، والملك ثانياً ، والعيش ثالثاً.

(٨) إن العصبية ضرورية لتأسيس الدولة والملك وقد يعرقلها إذا تعددت العصائب.

(٩) إن اتساع الدولة يكون متناسباً مع قوة العصبية . وتضعف العصبية بتعدد العصائب .

(١٠)العصبية تمثل الصورة الوحيدة للتضامن في المجتمع البدوي.

(١١) العصبية مصدر القوة ، ويعبر غالباً عن القوة بلفظ عصبية .

(١٢) تعتبر العصبية الأداة اللازمة لمساعدة القبيلة الأقوى على عملية توحيد القبائل وإخضاعها.

(١٣) إن الحاكم بحاجة إلى عصبية ليتغلب على القوم والعصبيات الأخرى وهذا التغلب هو الملك وهو أمر زائد على الرئاسة. فالرئاسة هي سؤدد وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر في أحكامه. أما الملك : فهو التغلب والحكم بالقهر. وصاحب العصبية إذا بلغ رتبة طلب ما فوقها ، فإذا بلغ الرئاسة ووجد الطريق إلى التغلب والقهر (الملك) لا يتركه لأنه مطلوب للنفس.

(١٤) إن العصبية هي محرك الصراع في الحياة الاجتماعية والسياسية بين القبائل من أجل العيش والسيادة والمال والغذاء. فهي من المفاهيم النظرية الأساسية المفسرة لحركة المجتمع وانتقاله من البداوة إلى الحضارة.

د. من التحليلات السابقة يتبين أن نظرية ابن خلدون في علاقة العصبية بالدولة ونظريته في علاقة العصبية بالدين ، يتمم بعضها بعضاً ، وتنسجمان تمام الانسجام في نطاق أنظومة واسعة من الخطوط. بمعنى أن أقوى الدول وأوسعها إنما تكون بانضمام الدعوة الدينية إلى قوة العصبية. فيقول ابن خلدون بهذا المجال (إن الملك والدولة العامة إنما يحصلان بالقبيلة والعصبية . إن الدعوة الدينية أيضاً لا تتم من غير عصبية. إلا أن هذه الدعوة ، إذا ما تمت بمساعدة القوة العصبية ضاعفت تلك القوة وجعلتها أقوى بكثير مما كانت عليه قبلاً).

هـ. إن النقد الذي يمكن توجيهه لنظرية العصبية، مبعثه محدودية وجهة نظر ابن خلدون بحدود الحالة الاجتماعية والسياسية التي شاهدها وعاش فيها، وبحدود الوقائع التاريخية التي اطلع على تفاصيلها. أما البيئة التي عاشها فهي خاصة بالحياة البدوية والحياة الحضرية للقبائل العربية الإسلامية وما تضمنتها من أحداث التكوين والهرم والانهيار.

و. في ضوء ما تقدم من عرض وتحليل ومناقشة ونقد، يمكن القول أن نظرية ابن خلدون كانت نظرية موفقة إلى حد كبير في إظهار أوثق أنواع الروابط الاجتماعية وتعيين أشكال التكاتف الاجتماعي. في مثل تلك البيئات الجغرافية. وهي تدل على تفكير فاحص ونافذ ومتعمق في الحوادث الاجتماعية وتعليل الوثائق التاريخية.

ويوصي الباحث بأجراء المزيد من الدراسات التحليلية و النقدية حول نظرية العصبية عند ابن خلدون. للتعرف على مصادر الروابط الاجتماعية و أشكالها و أدوارها في ضوء المتغيرات التي يشهدها المجتمع المعاصر في ضوء العولمة.

المراجع

- ابن منظور: لسان العرب، ج١، المؤسسة المصرية للنشر، القاهرة، ب س ن.
- أحمد الخشاب: التفكير الاجتماعي، دار المعارف، مصر، ١٩٧٠م.
- أبو زياتي الدرجاني، العصبية القبلية وأثرها على النظم والعلاقات في المغرب، رسالة ماجستير من الجزائر، معهد التاريخ، ١٩٨٩م.
- ايف لاكوش، العلامة ابن خلدون، ط ١، ترجمة ميشال سليمان، دار ابن خلدون للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ١٩٧٤م.
- ايف لاكوش، مرجع سابق.
- بطرس البستاني: محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٧م.
- ساطع الحصري: دراسات عن مقدمة ابن خلدون، مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغداد، ١٩٦٦.
- عبد الرحمن ابن خلدون، مقدمة موسوعة العلامة ابن خلدون، الفصل الثامن، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٩٩م.
- علي عبد الواحد وافي: عبقريات ابن خلدون، ط ٢، مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، جدة، ١٩٨٤ م، ص ٢٢٢.
- علي مظهر: العصبية عند العرب في الجاهلية والإسلام حتى زوال دولة بني أمية من الشرق، شركة مساهمة تليفون، ١٩٢٣ م.
- معن خليل عمر: نقد الفكر العربي، ط ١، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، بيروت، ١٩٨٢ م.
- مصباح العاملي: ابن خلدون وتفوق الفكر العربي على الفكر اليوناني، ط١، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ب ب ن، ١٩٨٨م.
- هاني يحيى نصري: عصبية لا طائفية، دار العلم، بيروت – لبنان، ١٩٨٢م.

الهوامش

١. بطرس البستاني: محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٧م، ص ٦٠٤.

٢. ابن منظور: لسان العرب، ج١، المؤسسة المصرية للنشر، القاهرة، ب س ن، ص ٩٥.

٣. علي مظهر: العصبية عند العرب في الجاهلية والإسلام حتى زوال دولة بني أمية من الشرق، شركة مساهمة تليفون، ١٩٢٣ م، ص ٥.

٤. أبو زياتي الدرجاني، العصبية القبلية وأثرها على النظم والعلاقات في المغرب، رسالة ماجستير من الجزائر، معهد التاريخ، ١٩٨٩م، ص ص ٦-٩.

٥. هاني يحيى نصري: عصبية لا طائفية، دار العلم، بيروت – لبنان، ١٩٨٢م، ص ١١.

٦. المرجع السابق، ص ١٥.

٧. عبد الرحمن ابن خلدون، مقدمة موسوعة العلامة ابن خلدون، الفصل الثامن، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ٢٢٥.

٨. معن خليل عمر: نقد الفكر العربي، ط ١، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٢ م، ص ١٣.

٩. ايف لاكوش، العلامة ابن خلدون، ط ١، ترجمة ميشال سليمان، دار ابن خلدون للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ١٩٧٤م، ص ص ١٢٨-١٣٠.

١٠. مصباح العاملي: ابن خلدون وتفوق الفكر العربي على الفكر اليوناني، ط ١، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ب ب ن، ١٩٨٨م، ص ٤٠٧.

١١. ايف لاكوش، مرجع سابق، ص ١٣٢.

١٢. مصباح العاملي: مرجع سابق، ص ٤٠٨.

١٣. ساطع الحصري: دراسات عن مقدمة ابت خلدون، مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغداد، ١٩٦٦، ص ٢٣٥.

١٤. علي عبد الواحد وافي: عبقريات ابن خلدون، ط ٢، مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، جدة، ١٩٨٤ م، ص ٢٢٢.

١٥. أحمد الخشاب: التفكير الاجتماعي، دار المعارف، مصر، ١٩٧٠م، ص٣١٩.



الدكتور علاء زهير الرواشدة في سطور:

دكتوراه علم اجتماع، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٦، تقدير ممتاز، عنوان الرسالة: اتجاهات النخب السياسية في الأردن نحو العولمة: دراسة مسحية. ماجستير علم اجتماع، الجامعة الأردنية، ١٩٩٨، تقدير ممتاز، عنوان الرسالة: النفقات الاستهلاكية للأسرة في شهر رمضان. بكالوريوس علم اجتماع، جامعة اليرموك، ١٩٩٦، تقدير جيد جدا، الأول على الدفعة مع شهادة تفوق علمي. أستاذ مساعد، قسم العلوم التربوية والاجتماعية، جامعة البلقاء التطبيقية، الأردن، منذ سبتمبر ٢٠٠٠ حتى الوقت الحاضر. محاضر غير متفرغ، قسم علم الاجتماع والعمل الاجتماعي، الجامعة الأردنية، فصول متفرقة. باحث، المؤسسة العامة للإسكان والتطوير الحضري، عمان، الأردن، (١٩٩٨ - ٢٠٠٣). باحث، صندوق المعونة الوطنية، عمان، (١٩٩٧ - ١٩٩٨). مساعد بحث، قسم علم الاجتماع، جامعة اليرموك، الأردن، (١٩٩٦-١٩٩٨). عضو نادي الدراسات العليا في الجامعة الأردنية (١٩٩٦ -١٩٩٨). عضو هيئة إدارية في نادي تشغيل الطلبة في الجامعة الأردنية (١٩٩٦-١٩٩٨).